الوثيقة الثّانية: النصّ 2: في فضل العرب

ثم حَضَرْتُهُ ليلةً أخرى فأوَّلُ مَا فاتَحَ به المجلسَ أنْ قال :أتُفضِّلُ العَرَبَ على العَجَمِ أم العجَمَ على العَرَبِ؟

قلت :الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال :العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريق ما عندها. قال: إنّما أريدُ بهذا الفُرس.

فقلتُ: قبلَ أن أحْكُمَ بشيءٍ من تلقاء نفسي، أَرْوِي كلامًا لابن المقفّع، وهو أصيلٌ في الفُرْسِ عريقٌ في العَجَمِ، مُفَضّلٌ بين أهل الفَضل[...]. قال: هاتِ على بركة الله وعونه.

قلتُ: قالَ شبيبٌ بن شبّة: إنّا لوقوف في عرصة المرْبَدِ–وهو مَوْقِفُ الأَشْرَافِ ومُجتمعُ النّاسِ وَقد حضَرَ أعْيانُ المِصْرِ–إذ طلع ابن المقفّع، فما فينا أحدٌ إلّا هشّ له، وارتاح إلى مساءلته، وسُررنا بطلعته. [...] فقال: أيّ الأُمَمِ أعْقَلُ؟ فظننّا أنه يريد الفُرس، فقلنا :فَارِسُ أعقل الأمم. نقصد مقاربته، ونتوخّى مصانعته(1). فقال :كلّا، ليس ذلك لها ولا فيها، هُمْ قوم عُلِّمُوا فَتَعَلَّمُوا، وَمُثِّلَ لهم فامتثلوا واقْتَدَوْا [...]، ليس لهم استنباط ولا استخراج .فقلنا له: الرّوم. فقال: ليس ذلك عندها. [...]هم أصحابُ بناءٍ وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يُحسنون غيرهما. قلنا :فالصّين .قال :أصحاب أثاثٍ وصنعة، لا فِكْرَ لها ولا رَوِيَّة. [...] فرددنا الأمر إليه. قال: العرب.

فتلاحظنا، وهمسَ بعضنَا إلى بعض، فغاظه ذلك منّا [...]، ثم قال :كأنّكم تظنّون فيَّ مُقاربتكم، [...] ولكنْ لا أدعكم حتى أبيّن لَكُمْ لِمَ قلتُ ذلك، لأخرج من ظنّة المداراة، وتوهّم المصانعة. إنّ العربَ ليس لها أولُ تؤمّه(2) ولا كتاب يَدُلُّها. أهلُ بَلَدٍ قَفْرٍ، ووحْشَةٍ من الإِنْسِ، احتاج كلّ واحد منهم في وحدته إلى فِكرِهِ وَنَظَرِهِ وَعَقْلِهِ، وعَلِمُوا أنّ معاشهم(3) من نباتْ الأرض فَوَسَمُوا كلّ شيء بسمته، ونسبوه إلى جنسه وعرفوا مصلحة ذلك في رَطْبِهِ ويَابِسِهِ، وأوقاته وأزمنته، ثم نظروا إلى الزّمان واختلافه فجعلوه ربيعيّا وصيفيّا، وقيظيّا وشتويّا، ثم علموا أنّ شُربهم من السّماء، فوضعوا لذلك الأنواء، وعرفوا تغيّر الزّمان فجعلوا له منازله من السّنة، واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السّماء أدلّة على أطراف الأرض وأقطارها، فسلكوا بها البلاد، وجعلوا بينهم شيئا يَنْتَهُونَ به عَنِ المُنْكَرِ، ويُرغّبهم في الجميل، ويتجنّبون به الدناءة ويُحُضّهم على المكارم، [...] ليس لهم كلام إلّا وَهُم يتحاضّون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد، كلّ واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلّمون ولا يتأدّبون، بل نحائز (4) مؤدّبة، وعقول عارفة، فلذلك قلت لكم :إنَّهُم أعقلُ الأمَمِ، لِصِحَّةِ الفِطْرَةِ واعتِدَالِ البِنْيَةِ وصَوَابِ الفِكر وذكاء الفَهم. هذا آخر الحديث.

قال :ما أحسن ما قال ابن المقفّع! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به!

أبو حيّان التّوحيديّ، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص ص 70– 73.

- الأعلام:
  - ابن المقفّع: الكاتب المعروف، وهو من أصل فارسيّ. ويعتبر من رموز العقل في الحضارة العربيّة الإسلاميّة.
  - شبيب بن شبّة: من أشراف العرب. ولّي الأهواز.
- الشّرح:
  1. مصانعته: مجاراته.
  2. تؤُمُّه: تتبع ما يسنّه لها.
  3. معاشهم: رزقهم.
  4. نحائز: عادات وطبائع.